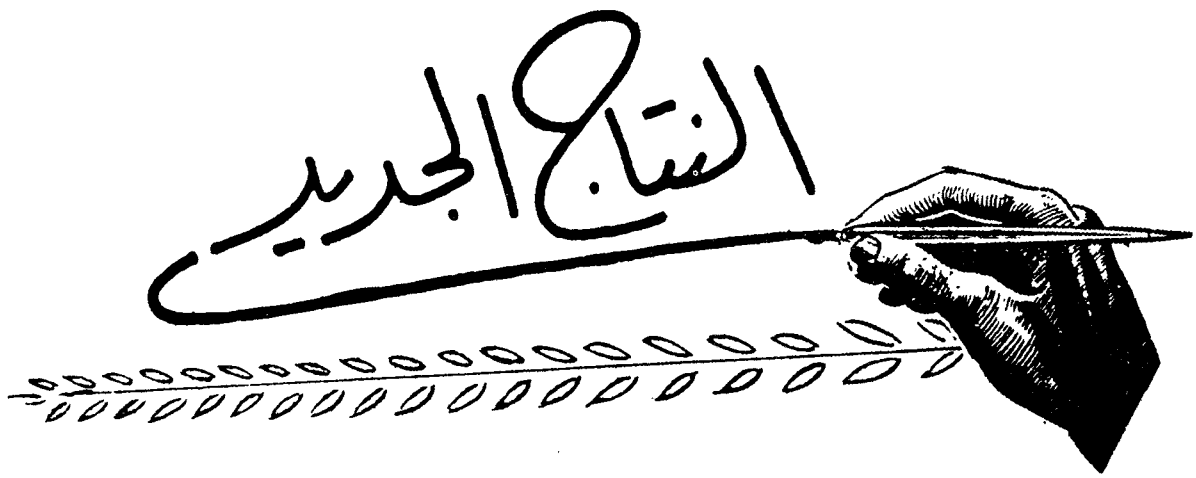

الزهاوي وديوانه المفقود

دراسة بقلم : هلال ناجي

٣٨٠ صفحة ـ مكتبة العرب

*

ان جميع الظواهر الفكرية التي بين أيدينا تكاد تقنعنا اننا دخلنا عهد الموسوعات والابحاث الجامعة والتحقيقات الادبية الشاملة ، فبعد ان كنا في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن نعنى بالاجزاء الفكرية والقطاعات المختلفة من حياة المفكرين ودراسات الاعلام تجدنا اليوم قد دخلنا منطقة الشمول والبحث الجامع . وامامنا في السنوات الاخيرة عديد من الدراسات المنوعة الجامعة عن كثير من اعلام التاريخ والفكر والادب والشعر ، فقد ظهرت دراسات عن الجبرتي والكواكبي وشوقي وحافظ ومطران والافغاني وجبران .

ولقد كان متوقعا ان تظهر دراسات جامعة عن الرصافي والزهاوي واحمد محرم وزكي مبارك وبيكل وغيرهم .

وقد اغنانا الشاعر العراقي العربي « هلال ناجي » حين قدم من قبل دراستين عن « الرصافي » هما « من حياة الرصافي وادبه » و« القومية والاشتراكية في شعر الرصافي » وكنا نتوقع ان نجد بين ايدينا دراسة جامعة شاملة عن « الزهاوي » بعد ان مر الان اكثر من ربع قرن على وفاته .

وهلال ناجي ـ فوق انه شاعر وصفه بعض النقاد بشاعر اللمحات المضيئة وفوق ان شعره القومي العربي الوحدوي في حاجة الى دراسة مستقلة فانه باحث لامع ، له ادوات الباحث وكفايته ووسائله العلمية القائمة على التحقيق والمراجعة ومعارضته النصوص والوصول الى الحقائق على النحو الذي يشهد له بالانصاف والتجرد .

وهو من طائفة « الشمول والاغناء » وهي طائفة قليلة العدد في عالمنا العربي ـ واعتقد انني واحد منها ـ على الرغم مما يوجه لهذه الطائفة من نقد من حيث الاهتمام بتقديم اكبر قدر ممكن من النصوص والاسانيد ، فهو يريد في كتابه « الزهاوي وديوانه المفقود » ان يقدم للقارىء كل ما يتصل بموضوعه بحيث لا يحوجه الى أي مرجع اخر عنه ، فقد استعرض كل ما كتب عن الزهاوي في حياته وبعد مماته من دراسات تمتد اكثر من اربعين عاما في عمر الزمن وتشمل مؤلفات اربعة عنه كان لي شرف الاسهام في اعداد واحد منها وهي : الزهاوي الشاعر : اسماعيل أدهم ١٩٣٧ ، حقيقة الزهاوي ، مهدي عباس العبيدي ١٩٤٧، محاضرات عن الزهاوي : الدكتور ناصر الحاني ١٩٥٤ ، الزهاوي شاعر الحرية : انور الجندي ١٩٦٠ ، و ٣٤ مقالا وبحثا نشرت في الصحف والكتب خلال هذه الفترة وعنى الاستاذ هلال بان يلخص اراء الكتاب والباحثين عن الزهاوي ويراجعها ويحققها ويصحح ما ورد بها من اخطاء وما اتصل بحياة الشاعر او ادبه من تحريف .

وقد جاء الكتاب مرجعا شاملا لحياة الزهاوي وادبه ، محققا وقائع حياته مستوعبا لكل ما يتصل به من قريب او بعيد في أبواب ستة هي : ١ ـ حياة الزهاوي ـ ٢ ـ اثار الزهاوي ـ ٣ ـ شعر الزهاوي « وهو أطول فصول الكتاب وقد بلغ ١١٠ صفحات» ـ ٤ ـ الشعر والشعراء عند الزهاوي ـ ٥ ـ الزهاوي في نظر المستشرقين ـ ٦ ـ الزهاوي في اثار الباحثين .

ثم ضم الكتاب ديوان « النزعات » وهو الديوان الذي قرأنا عنه كثيرا منذ اودعه الزهاوي لدى سلامه موسى في القاهرة عام ١٩٢٤ وظل المعنيون بالدراسات الادبية والشعرية يتطلعون اليه حتى استطاع هلال ناجي ان يظفر به ويحقق باخراجه نصرا ادبيا لا شك فيه وقد عني الباحث بامور على قدر كبير من الاهمية في البحث العلمي منها :

- الاهتمام بتقديم النصوص الكاملة للاثار التي دار حولها البحث طويلا وليست تحت يد الباحثين كاملة، من ذلك قصيدة الزهاوي المشهورة في مدح الانجليز ومقاله في المؤيد عن تحرير المرأة .
- اهتم بعقد المقارنة لاول مرة بين الزهاوي والمعري .
- العناية الشاملة بتحقيق الوقائع والكشف عن الجوانب الغامضة .
- الانصاف للزهاوي مع الانصاف للتاريخ فان الكاتب الذي اهتم ابلغ الاهتمام بان يقدم دراسة منهجية شاملة لحياة الزهاوي وادبه ، اساسها التقدير لشخصية الشاعر الكبير الذي لم ينصف على النحو الذي هو جدير به ، لم يتردد في ان يحصي عليه اخطاءه ويسرد مؤاخذاته .

- حقق وقائع حياته وناقض الزهاوي نفسه في مذكراته الخاصة عندما اشار الى محاولة الجماهير قتله بسبب مقالة نشرها في المؤيد عام ١٩١٠ في الدفاع عن المرأة وهي قصة رددها جميع مؤرخيه وانكرها الباحث . وكذلك ما قال عن نفسه من انه اول من هاجم الاستبداد العثماني واول من دافع عن المرأة شعرا واول من كتب القصة الشعرية .

وقد لخص هلال ناجي الدوافع التي دعته الى اعداد هذه الدراسة وأجملها في :

١ ـ ان الزهاوي قد غبن ميتا بعد أن غبن حيا. فهو لم يظفر ببعض ما ظفر به اقرانه ومعاصروه الذين الفت عنهم الرسائل الجامعية كالرصافي والكاظمي. فاراد ان ينتصر له بحكم انه رجل قانون ينتصف للمغبون .

٢ ـ وان الزهاوي كان قريبا دائما من نفسه فقد كان يمر في غدوه ورواحه الى المدرسة على ضريحه .

٣ ـ لقب ديوانه المفقود الذي ظل مطويا اكثر من ثمانية وثلاثين عاما.

يقول هلال ناجي في تصوير دوافعه لدراسة الزهاوي : « كنت امر بقبره في غدوتي الى المدرسة وفي رواحي منها وكلما نظرت الى ضريحه جالت في خاطري الرغبة في دراسة هذا الشاعر الكبير ، كان اكثر ما يثيرني اشارة عدد كبير من الكتاب الى واقعة تاثره بفيلسوف المعره مجرد اشارة ، دونما تفصيل او تعليل يشبع فضول الاديب او

المتأدب ، فما من دارس عرض لشعرهما الفلسفي فوازن بينهما واماط اللثام عن مواضع الائتلاف ومواطن الاختلاف .

وكنت أحس بقول الزهاوي مخاطبا « ابا العلاء » يدوي في اعماقي:

انيتململت فيبيتي عليك وان ابلت عظامك ازمان وازمان

ثم لفتني مشاغل الحياة في دوامتها بعد تخرجي حتى اذا كان صيف عام ١٩٦١ وكنت انذاك في سوريا فاتيحت لي زيارة ـ معرة النعمان ـ ووقفت بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه، استقريء التراب احداث الزمن واستاف روائح المعري في مسقط رأسه ومربضه وعادات الفكرة تلح علي من جديد « الزهاوي معري هذا العصر » : هكذا قال طه حسين .

لقد شارك الزهاوي فيلسوف المعره ابا العلاء عرشه في الجلوس على قمة الشعر العربي الفلسفي : هكذا قال اسماعيل ادهم .

وكنت اشعر اننا كعراقيين مدينون لابي العلاء كثيرا ، لقد احبنا حبا جما فقال في بغداد ما لم يقله غيره وقال في عراقنا الحبيب :

كلفتا بالعراق ونحن شرخ فلم نلمم بها الا كهولا

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا اشرف الشجر النخيلا).

*

وخلاصة رأي المؤلف في الزهاوي أن شعر الزهاوي يجمع بين التجديد والتقليد في صعيد واحد ، ففي الوقت الذي يتجنب فيه المحسنات اللفظية والبديعية نجده يحاكي كثيرا من القدماء في اسلوبهم وقد عرض لاهم نقد وجه لشعر الزهاوي وان شعره مبعثه الفكر لا القلب فقال : ان مهمة الشاعر في الاصل ان يكون خالق صور ، لكن الشاعر العبقري هو الذي يستطيع ان يكون خالق افكار الى جانب ذلك وخالق عواطف عن طريق هذه الافكار . وقال ان الزهاوي في غمرة سعيه لان يكون خالق أفكار اهمل احيانا وعن غير قصد وظيفة الشاعر الاساسية : خالق الصور .

وقد وجه هلال اهتمامه لدراسة الشعر الفلسفي للزهاوي باعتباره ابرز فنون شعره ، في عرض مستفيض واسع ، تناول كل فنون شعره وافانين النظم عنده ، وعرض للقضايا التي اثيرت حول اتهامه بالالحاد وانكار الالوهية وجلا هذه الجوانب واشار الى تأثره بالمعري والمتنبي وبشار والنواسي والخيام . والى انه تاثر ايضا بالرصافي فقد حاول محاكاته ومجاراته في اختيار البحر والقافية والموضوع وانت تشعر في كل مقارنة أن الكاتب يمجد الرصافي ويضعه فوق الزهاوي ويرى انه « شاعر مكافحة الاستعمار وعملاته . وان له رصيدا من شعر كفاح استبداد الملوك والامراء لا نظير له في شعرنا العربي المعاصر » وافرد الكاتب فصلا لمؤاخذته للزهاوي فاشار الى انه بعد أن هجا السلطان عبد الحميد في رائعته « ايام ظل الله في ارضه .. الخ » عاد فاستجدى ومدحه مدحا ذليلا في كتابه « الفجر الصادق » .

واحصى عليه انه في كتابه هذا دعا الى تدمير فرقة الوهابية التي نقضت بيعة السلطان وخرجت على طاعته في حين نراه بعد سنوات يمدح الملك الوهابي عبد العزيز آل سعود .

كما احصى عليه انه لما ثارت ثائرة الناس عليه بسبب دفاعه عن المرأة المنشور في المؤيد دفع بعض صحبه الى ان ينشروا في المؤيد انها مدسوسة عليه واخذ عليه مدحته للانجليز في قصيدته المشهورة التي نشرها في ديوانه الكلم المنظوم . وكان الزهاوي قد حاول الدفاع عن هذه القصيدة بانه انما قالها قبل ان تحدث الحرب العالمية ويحتل الانجليز العراق . وتقصى هلال ناجي الزهاوي في هذا ، وقال انه عاد فنشر القصيدة مرة اخرى ايام الاحتلال في جريدة العرب التي كان يصدرها الاستعمار البريطاني في العراق . وذلك بعد ان سبكها وغير بعض ألفاظها . وكشف عن قصيدة اخرى في ديوانه مدح بها الانجليز ايضا . واخذ عليه موقفه من ثورة العراق عام ١٩٢٠ وتقلبه في هجاء الثوار حينا ثم رثاء الشهداء حينا اخر ، فضلا عن تحيته الشعرية لاول مندوب سامي بريطاني الى العراق .

*

وكان تقديم ديوان « النزعات » فيهذا الكتاب عملا جديرا بالاشارة اليه فقد عرف ان هذا الديوان قد اودعه الزهاوي ابان زيارته لمصر عام ١٩٢٤ عند سلامه موسى الذي اعاره الى الدكتور زكي ابو شادي ثم توفي سلامه وهاجر ابو شادي . وقد اراد هلال ناجي بعد قدومه الى القاهرة ان يستقصي الامر في هذا الديوان حتى اتيح له ان يحصل على نسخة منه عام ١٩٦١ وقد أجرى تحقيقا شاملا حول نصوص الديوان للتاكد من انه من نظم الزهاوي وفق الاسلوب العلمي الحديث وقد اشار الى هذه المراجعات وقال ان الزهاوي اطلق عليه اسم « النزعات او الشك واليقين » خلافا لما اورده سلامه موسى (نزعات ابليس) او امين الريحاني « نزعات الشيطان » وقد صدره بعبارة غامضة فقال : اختلف في صاحب هذا الشعر فمن قائل انه لجماعة من الفلاسفة كالرئيس على بن سينا او ابن رشد او ابن كمونه البغدادي ومن قائل انه لفيلسوف كان في زمن الغرور في حياته ماديا فقال ما قال من شعر كله شك ثم ظهر له الحق فعاد روحيا وقال ما قال من شعر كله يقين .

وقد عرض الكاتب لقضية شك الزهاوي ويقينه فاكد بانه في شعره اليقيني يمتاز بصدق الشعور وفي شعر الشك يبدو عليه التكلف .

وبعد : فان هذا الكتاب جهد طيب ، قدم للادب العربي عملا جديدا واضاف الى المكتبة العربية ثروة نافعة تعين الباحثين وتكشف امامهم الطريق الى كثير من الحقائق التي كانت مجهولة من قبل ظهوره .

القاهرة — أنور الجندي

بؤس وضياء

شعر الدكتور محمد عزيز الحبابي

نشر : دار عويدات ـ بيروت

*

لستادري هل تعدى ديوان الشاعر الفيلسوفالدكتور محمد عزيز الحبابي الاسواق الادبية في المغرب الى غيرها من الاسواق الادبية في باقي الشقيقات العربية أم لا ، ولكن الذي أدريه حق الدراية هو ان « الاداب » تشرق من بيروت في غضون كل شهر على كل سوق ادبية في العالم العربي ، ومن هذه الزاوية فقط ارتأيت ان أنشر هذا الحديث عن « بؤس وضياء » على صفحات « الاداب » الزاهرة ليطلع عليه اكبر عدد ممكن من القراء العرب الذين ما أحسبهم الا متشوقين لرؤية وجه المغرب الادبي .

وشاعرنا الفيلسوف الدكتور الحبابي ـ عميد كلية الاداب والعلوم الانسانية بجامعة الرباط ـ من المغاربة الذين يزرعون النور في بيادرنا لينمو غدا قويا كالشمس ، نهضة فكرية ... رائعة، عمادها نبضات فكر وخلجات قلب ، ورائدها ـ دوما ـ كلمة شامخة ، صادقة .. لن تبتذل، لن تهرم ، لن تموت !

درس الحبابي الفلسفة في فرنسا ، وحصل على الدكتورة منها برسالته المعنونة : « من الكائن الى الشخص » ، وهي بحث طويل في الفلسفة الشخصانية ، واذا كان الدكتور الحبابي قد تتلمذ لهذا المذهب الفلسفي الذي تزعمه اولا دانييل مونييه فانه قد وضح في رسالته التي أسلفنا ذكرها منهجا مبتكرا ، هو : « الشخصانية الواقعية » وقد عمد اخيرا الى رسالته يترجم فصولها الى العربية وتنشرها مجلة « دعوة الحق » المغربية .

و« بؤس وضياء » ديوان انشأه صاحبه اولا بالفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٩٥٨ ، ونال جائزة وزارة التربية والتعليم بالمغرب سنة

١٩٥٩ ، وقد تولى نقله من الفرنسية الى العربية الدكتور الحبابي نفسه، فاستطاع بذلك ـ وهو القابض على زمام اللغتين : العربية والفرنسية ـ ان ينقل الى مستهلكي الحرف العربي تجربته النفسية بكل حرارتها وبكل فورتها ، تلك التي عكسها من قبل بالحرف الفرنسي .

وحبابي « من الكائن الى الشخص » غير حبابي « بؤس وضياء » ، فهو في الاول فكر شامخ ، عات ، قوي ، أما في الثاني فهو قلب كبير ، جياش بالمحبة والاخاء ، وفكر عميق ، عميق كقـــرارة اللامنتهـــي ... الحبابي في « بؤس وضياء » بقلبه الكبير يفكر ، وبفكره العميق يشعر، ومن هنا افسح لنفسه مكانا في قافلة ، نور الفكر وضياء الوجـدان أبدا يسعيان بها الى الافق المزروع بالنجوم ... والحقيقة ، قافلة ابـــن الفارض ورابعة وعمر الخيام وطاغور ، اذا القيت نظرة على قصائـــد ديوانه ، فهنالك فكر شامخ يمتزج بوجدان مشبوب ، فتتعانق الفلسفـة والشعر .. وأكاد أقول : يولد منها صباح جديد أشبه بعبقر !.

وليس من شك في ان فكرة الحبابي الشخصانية فكرة قد يستعصى فهمها ويصعب هضمها ـ بلغة المعدة ـ على كثير من الناس ، ولكن شعره بالعكس من ذلك ، بسيط كالحبابي نفسه ، وهذا هو مادفع بالاميـــرة الاديبة للاعائشة الى ان تقول في مقدمة الديوان : (واذا كانت فـــكرة الحبابي الفيلسوف الشخصاني ، لا تدخل الى أذهان الجماعات فـــان شعره يثير مشاعرها ، كان يخاطب بنضارته ونبراته المندفعـة من اعماق الانسانية قلب كل انسان كما يخاطب الاحاسيس العامة) .

ان الضياء في ديوان الحبابي دافق ، غامر .. ضاحك ، متفائـــل تماما كبسمة طفل صغير أو حلم أبريلي .. مشرق ، ولكن أليس في العالم أناس يتعذبون ، وآخرون يحصد أرواحهم البيضاء الرصاص حصدا ..؟ اليس ثمة في العالم من يناضل ضد الاستعمار الاسود ، ضد الامبريالية البشعة ؟ أليس ثمة في العالم انسان يتعذب ويتألم ويزرع الاوغاد فـي دربه المـــوت ؟

اجل ، ان في العالم كل ذلك ، وهو ما جعل « البؤس » ينتفض ـ ثائرا ـ في ديوان الحبابي .. ولكنه بؤس ، ظلامه لا يلبث أن يلفـظ انفاسه ويمضي بلا رجعة ... وهذه «حياة الغد» انها تبرز لنا مكنونات نفس تكره الظلام .. ظلام البؤس والحرب والدماء ، وتتعشق الســلام ، وتهوى الحرية ، وتهتف لغد افضل .. طليق كثورة ضوء ، يكون فيـه الحب والحب والحب ... والخبز الابيض والضياء :

اخوتي !
في الوادي الذي يرويه دمكم الزاكي
دم الشهداء
لن تكون الازهار بعد حديدا .
وستحل الكروم محل الاسلاك الشائكة
وتتصافح الايدي
بدلا من حمل الهراوات
عندئذ
سنذهب جميعا فنحنو على جدول
يجري في ظل الاكاليل الحمقاء التي تزين
قبوركم
ساعتئذ
نمضي لقطاف الحياة الجديدة
في أثوابها الخضراء
ونرتوي
ونستنشق الهواء الثائر الاثيري
لحظتئذ
سيعرف الماء في اندفاقه الحيوي
كيف يستعمل اكسيره الحنون
لغسل الايدي الملطخة بالدماء
وهناك
يهتدي الناس الى سر أنشودتهم الاصيلة
ويسترد الناي لحنه الفتي الشجي
ولن تبقى القيثارة مقطعة الاوتار
سيكون النشيد الاول للعدالة
وتمضي الحرب بلا نعش
لتفرق في مكان بعيد
حيث يلفظ الشر انفاسه
ويموت أسوأ ميتة
الى الابـد
الحب ! الحب ! الحب
دون تحفظ
من أعماق كياننـا
والخبز الابيض
والضيـاء
الى الابـد
بالحب

وفي شعر الحبابي دفق الاحساس ، وصقل العاطفـة .. وأيضـا انتفاضة عميقة ، معبرة بصدق وحرارة عن قلبه الكبير .. عن عناقيـــد الحب التي يعصرها للانسان .. مطلق الانسان !

لاني أحب العالم
نجملت الطبيعة
وانقلبت ضوضاؤها انجاما
أرى
أكوام جليدها
وأعشابها النضرة
وأزاهيرها المنوعة
أعب العطور

في المكتبات

مع الإمام علي

من خلال «نهج البلاغة»

دراســة مســتفيضة عن عبقــرية الامام علي كسياسي وحكيــم من خــلال خطبه ورسائله التي يتضمنهــا كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تاليـــف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الاداب

واغتسل بالنور
واستلقي على الخضرة
وعندما أنتشي بمباهجها
يذوب في بوتقة الانسانية
حنيني الى وطني ،
الشعوب جميعها لي اخوة
والمحبة لي أوطان

هذه الغنائية الشفافة كعذراء من فوق.. وهذه التصوفية الرقيقة الهادفة كحلم فارضي ، أليست تذكرك ـ كما ذكرتني ـ بقولة عملاق من عمالقة التصوف الاسلامي : (حدقة عين العارف تسع الدنيا) وبكلمة توماس بين : (هذا العالم قريتي) .

والحبابي لفرط حبه العميق ، العميق كفكره ، للانسان ينثر له ربيعا من الكلمات ولا ابهى !

علموا كيف تهزؤون بالمصير
حينما يكون المصير عاتيا
احتقروا الفراغ المجتاح
الآخذ بخناقكم
حاصروا السكون
حطموا كيانه
فيفنو رنات رقيقة
تلطف لهجته الحاسمة
كفوا عن الصراخ !
لا تصرخوا !
لن تصرخوا !
في الفراغ المنقبض
لننصت الى الصوت البشري
الدفيء
لنمدد ايدينا الى الناس
أخوتنا
لنصعد معا
من المنحدر
لكي نرقص
هيا لنغني معا
نغمة عذراء
نغمة عذراء
لتبديد البغضاء
وتحطيم السكون
دون صراخ
كفوا عن الصراخ !
لا تصرخوا !
في الفراغ المنقبض !

... واذ انهزم ليل الاوغاد عن آفاق المغرب .. واطلت على ربوعه شمس عهد جديد ، صاح الحبابي :

أتمخض عن حلم
سوف يتفتح في الربيع
مع الورود
هو الخضر
كشعار وطني
هو أحمر
كغضب شعبي
أتمخض عن حلم
يتضوع مع شذى الياسمين
سيجابه الازمان
واثقا بتفتحه
كما تجابه الصخرة الامواج

تلك بعض مضامين شعر الحبابي .. انها مضامين خصبة ، عطاءات ثرة .. الحب ، التفاؤل، التشوق لغد افضل ، الايمان بالانسان، التمجيد للحرية ، خطوطها البارزة وسماتها الواضحة ، اما شكل شعره فهو منثور ، لا يلتزم وزنا ولا قافية ، ولكنه مع ذلك ليست تنقصه موسيقى نفسية ، ذات ظلال خضراء ، مجنحة ، تنساب في نفس القارىء انسيابا هادئا .. منغما، ولعل الحبابي لا تنقصه القدرة على قولبة شعره في أوزان الخليل ، وهذه قصيدته « الحي اللاتيني » من بحر المتقارب دليل قاطع على ذلك ، استمع الى بعض أبياتها :

بحق جنون القبل
ودمع العواشق اذ ينحدر
بحق جموع الشباب الغرير
تعال ، تعال لحي الشباب
لنصليها رشفات الامل .

تطوان

حسن الوراكلي

يؤس وضياء

ديوان للشاعر علي الحلي

٦٤ صفحة ـ مطبعة مخيمر ـ القاهرة ـ ١٩٦٢

*

عندما وجدت (طعام المقصلة) بين يدي ، عادت بي الخواطر الى سنوات مضت من حياتنا انا والشاعر ، عندما كنا ندرس القانون معا في كلية الحقوق ببغداد ، وعندما كنا نسهم معا في تحرير مجلة الكلية (الجامعة) التي جعلناها أدبية الطابع رغم القانون ! وتمضي الايام فاذا به يتوظف في المصرف الزراعي واذا بي أمارس المحاماة . وتبرز مجموعته الاولى (الشاعر) عام ١٩٥٤ لتحدد مفهومه الثوري لرسالة الشاعر في دنيانا العربية . ثم هو يصر على الاسهام في المعركة ضد الاحلاف وحلف بغداد على وجه التخصيص فيطرده زبانية نوري السعيد من وظيفته فيلجأ الى المحاماة ويفتتح الى جانبي مكتبا متواضعا في شارع المتنبي ببغداد . كان ذلك عام ١٩٥٧ وتذكرت كيف حملت بنفسي مجموعته الشعرية (انسان الجزائر) في بواكير سنة ١٩٥٨ الى ادباء سوريا ولبنان ، وكانت هذه المجموعة أول ديوان عن الثورة الجزائرية يصدره شاعر عراقي . تذكرت هذا وتذكرت كيف كان (الحلي) يدفع ضريبة الكفاح من جوع أطفاله وسهد لياليه ، ولعله من نفل القول ان اذكر ان عليا من القلة التي آمنت بالحرية والوحدة والاشتراكية أهدافا للعروبة في وقت مبكر جدا وحتى قبل الثورة المصرية الخالدة ثم تذكرت فيما تذكرت كيف كان يخبىء (الحلي) دواوينه الثورية المخطوطة عندي لاحفظها له من عوادي الزمن ايام العهد الملكي المباد . كل ذلك جال بخاطري وانا انعم النظر في ديوانه الجديد (طعام المقصلة) . وهذا الديوان يشكل جزءا صغيرا من شعر (الحلي) الكفاحي . فان عليا هو شاعر الكفاح العربي غير مدافع وهو شاعر الارهاص الثوري في بلدي ، فمع كل بارقة امل عربي كانت تنطلق قصيدة له ومع كل انتفاضة عربية كانت تجلجل خريدة له . في انتفاضاتنا داخل العراق في اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٢ و١٩٥٦ تجاوب مع احاسيس شعبنا بل وارهص بها ، بل هو قد ارهص ارهاصا ثوريا عظيما بانهيار حلف بغداد قبل ان يبزغ فجر ١٤ تموز بسنوات طوال . كان (الحلي) يقول مخاطبا نوري السعيد متنبئا بانهيار حلف بغداد المقيت :

يا نذير الدمار يا روح نيرون سينهار عهدك الممقوت
وقلاع الطغيان لم يحمها الارهاب وان عتا الطاغوت
وبيوت الجناة ما شادها البغي هباء كما بنى العنكبوت

وهكذا غنى (الحلي) لكل ثورة عربية ولكل امل عربي ، ولقد كان الفارس المجلي في كل افراح العروبة واتراحها . لكن ثورة الجزائر حظيت منه بالنصيب الاوفى ، ذلك ان (الحلي) كان يراها معجزة العصر ، ان شعبا عربيا اعزل قد تحدى فرنسا الدولة الكبرى الباغية العريقة في الاستعمار ومن ورائها سلاح حلف الاطلنطي . ومن اجل ذلك كرس لهذه الثورة الجبارة ديوانه «انسان الجزائر» ومن اجل ذلك ايضا كتب ديوانه هذا (طعام المقصلة) .

ان عليا (الحلي) شان اغلب الشعراء الشباب في جيلنا ، لم ينقد شعره النقد الفني اللائق. واذا استثنينا محاولة عرجاء قام بها احدهم (١) ، فزعم ان رائعة (الحلي) المعنوية (يا طائر الزيتون) هي بلا تجربة وضحلة المعاني ومبهمتها قالها وهو يجهل ان هذه القصيدة بالذات وليدة تجربة عاشها الشاعر وهو فيها يتحدث عن نفسه عندما كان سجينا ايام العهد الملكي المباد ، يوم كانت زوجته ترد على ابنها المتسائل عن ابيه وقد طالت غيبته بقولها : ابوك مسافر .. مسافر .. حتى مع الطفل البريء هذه الاسطورة . اما الابهام المزعوم في معانيها فلا وجود له الا في ذهن ناقدها . اذا كانت الصور المتكاثفة هي السبب في وهمه فنحن نقول له : ان رسم الصور هو مجال ابداع الشاعر الاساسي، فاذا استطاع ان يخلق افكارا الى جانبها وان يهز العواطف من خلالها فقد كتب لشعره الخلود . واكثر ما يكتبه (الحلي) هو من هذا الطراز . ان الناقد المذكور قد سخر من انامل الدخان في محبس الشاعر التي صورها كالحية تسعى الى الصل :

انامل الدخان في محبس كحية تسعى الى الصل

سخر لانه لم يعش حياة المكافحين الاحرار ، ولم ير السجن الانفرادي طوال حياته، ومن اجل ذلك فهو لا يعلم مقدار الاصالة والابداع في هذه الصورة المبتكرة حيث لا يجد الشاعر في سجنه هذا غير انامل الدخان واشباح أحبابه . ومن عجب ان المذكور ختم مقاله بزعم ان هذه القصيدة تذكره برائعة لمحيي الدين فارس الشاعر السوداني المعروف وليس بين القصيدتين من رابطة الا البحر والقافية ! ونسي هو ان قراء « الاديب » قد سجلوا عليه في تلك الفترة بالذات تقممه على مائدة نزار قباني . ان اي قارىء عربي يقرأ قصيدة (مزيد الظاهر) المعنونة (بوح) (٢) ويستمع الى قوله :

اماه روحي تستجيب اليه وتود لو تغفو على زنديه
قد قال لي (انيرفيقةدربه وبانني الحب الوحيد لديه)

يحكم في الحال بانها اصداء خاوية لرائعة القباني المغناة . ومثلها قصيدته (الفستان الاحمر) (٣) فهي سطو على رائعة للشاعر العراقي المبدع (حازم سعيد) .

وبعد ، فاذا استثنينا هذه المحاولة القميئة ، واذا استثنينا بعض التعليقات الجيدة في باب (قرأت العدد الماضي) على بعض قصائده المنشورة في الاداب فان (الحلي) لم يدرس شعره حتى الان .

وليس ثمة شك في ان شاعرنا قد تأثر بالشاعر المصري الكبير محمود حسن اسماعيل ، ولكن هذا التأثر في رأينا اقتصر على الاسلوب دون المضمون ، ذلك انه في الوقت الذي كان فيه الشاعر المصري الكبير يغني للبلاط الملكي في القاهرة وينظم ديوانه « الملك » ، في هذا الوقت كان الحلي المتحرر يهاجم الملكية ويقض مضاجع الاستعمار والرجعية في قصائد ثورية أشبه بالاعاصير وقد يعاب على (الحلي) من حيث الاسلوب ما عيب به شعر محمود حسن اسماعيل ولكن لا مجال للحديث عن هذا في مثل هذه العجالة .

و (طعام المقصلة) باقة من الشعر المستوحى من ثورة الجزائر الخالدة واحداثها العظيمة، كلف الشاعر في بعضها بالتجديد فخرج على نظام الشطرتين وكتب شعرا حرا ، لكنه موسوق يعتمد التفعيلة مكان الوزن . وحافظ في اغلبها على العامود العربي لانه من المؤمنين بارتباط الماضي بالحاضر والمستقبل ارتباط عطاء وتفاعل ، بجعل من المحال ان يتخلى فنان عن تراثه وان يعيش فن بلا تراث . وهو في هذا الديوان عارم الخيال ، عارم الاسلوب ، وفي تصويره تدفق الطوفان ، كدجلة في نيسان ، وهو فيه يصدر عن اصالة قوامها احترام الكلمة وقوة الاطار الفني ، فهو وان تأثر بمحمود حسن اسماعيل لم يسرف ولم يشطح وبقي على الخط الفاصل بين غموض التهويم ووضوح التجسيم .

واذا كان لي ان اذكر ميزة للديوان فهي الثورية والتفاؤل المشرق استمع الى قوله :

لا تقل مات لن يموت الشهيد ولنا الثأر والفداء الجديد
لن يموت الصباح انا بقايا ويفنى الدجى ويبلى الحديد

واصغ الى حدائه :

كل سور يخر من شهقة الفجر ، وينشق الف قبر متاح
سوف نملي على الخلود سطورا من دماء تسح نبع الجراح

ثم رد الطرف الى قوله :

بورك البعث فالكفاح ربيع عربي الفداء كالاعصار
ابدي اللهيب يلظي مع الفجر ، ويجتث موحشات الدمار

ثم تأمل قوله :

جدد العزم يا رعيل الفتوحات ، دمانا تحفز وانتظار
نحن شوق الانسان للموعد المسحور دوي هتافنا الزئار
في عروق الحياة في مسمع الخلد فخرت من رجعه الاسوار

تأمل هذا .. وتأمل غيره فانك واجد فيه مزيجا فريدا من الثورية والتفاؤل المشرق لا نظير لهما في شعرنا المعاصر الا عند القلة الموهوبة .

ثم تأمل بعد هذا عظمة الصمود الثوري في قوله على لسان ثوار الجزائر مخاطبين الاستعمار الفرنسي الجائر :

ويك مهما خنقت انفاسنا الصم واشبعت محبس السجناء
بالرصاص اللئيم ، والنار والاسياط في معقل العذاب النائي
سوف نبقى مدى النهايات ثوارا يتيهون في حمى الامناء

وبعد ، فالادب القومي في رأي (الحلي) : « لا يمكن الا ان يكون تمثلا حيا لذاتنا العربية الاصيلة ، ان ادبنا القومي هو تعبير مباشر للاصالة العربية » والعروبة في رأيه هي : « عروبة نضالية واعية مسؤولة عما تقرر وتعمل من اجل وجودنا الحي المتحد ، وفي سبيل مجتمع عربي اشتراكي افضل » .

فاذا عرفنا ذلك وضعنا يدنا على مفتاح السر في شعره الهدار .

لقد نسيت ان أقول : ان عليا ولد في النجف عام ١٩٣١ وفيها انهى دراسته الثانوية وقد نال ليسانس القانون من كلية الحقوق العراقية في بغداد عام ١٩٥٢ ، ومثل العراق في مؤتمر الادباء العرب المنعقد في بلودان ، وهو متزوج وله بضعة اطفال . وقد اتيح له زيارة الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٢ في بعثة علمية .

(الحلي) اليوم في طليعة الشعراء الثوريين ، بل هو مشعل راعف بالدم في درب نضالنا الوحدوي التحرري الاشتراكي ، تحية للشاعر الصامد .

القاهرة هلال ناجي

(١) مزيد الظاهر ـ شعر الحلي واشباح اللامعنى ـ الاداب ـ اكتوبر ١٩٦١ .
(٢) الاديب يونيو ١٩٦١ .
(٣) الاديب مايو سنة ١٩٦١ .

شرر اللهيب

شعر زهير غازي زاهد

مطبعة الازهر ـ بغداد ـ ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط

*

مالأسهل مايستحثنا اطار المجموعة العام الى النبع الثر الذي يكرع منه الشاعر بنهم .. انه نبع الالم والتحرق والحرمان .. حيث تنتصب شرفات الرومانتيكية لتطل على دنيا الذات الملونة ، وكم كنت أقول ليت الشاعر فعل ذلك اذن لكانت المجموعة وحدة متصلة متعانقة وعرف بسه : لولا انه أقحم في ثناياها بضع قصائد في الوطنية والحماسيات لايتجاوز عددها العشر من مجموع احدى واربعين قصيدة . أقول ليت الشاعر فصل ذلك اذن لكانت المجموعة وحدة متصلة متعانقة ولما انفرطت ذلك الانفراط المحزن بسبب اقحامه اللامقبول .

هكذا اذن ، شاعرنا يألم ، ويتحرق ، يألم من كل شيء لايود ان ينفلت منه . وألمه المتورم هذا ينبت في ذاتيته ويورق هناك أو ييبس لا يكاد يرى الشمس، ونوافيره الفاغرة خلف اضلاعه متصالبة يشرب بعضها بعضا ، فلن يكون ألمه قلقا على مصير الانسان ومشاكله الحضارية الراهنة ذلك انه لم يعان توترا وجوديا عميقا يصله بالانسان المأساوي المتمزق ليطرح لنا بعد ذلك قضيته المصيرية الكبرى ، وهذا مايفصح عنه شعره الذي يعيد الى اذهاننا شعر ابراهيم ناجي وعبد القادر الناصري وسواهما من الرومانتيكيين الذين اعتمدوا الالم لذة فائضة . انهم يألمون لمجرد ان يألموا ولا شيء غير ذلك .

ولهذا السبب ، ولانه يعيش تكورا داخليا تغذوه بقيا تجربة بدأت تأكل نفسها ، أخطأه الابداع والخلق في كثير مما قدم لنا من معاني مكرورة وان استطاع في بعضها ان يسمه بسمة شخصية ويعطيه ابعادا تكاد تكون واضحة . ذلك ان الشاعر ، خاصة الرومانتيكي ، عبد لحظاته. فهو منغفط تحت ثقلها لايكاد يشعر بشيء سواء مما قد يفسد تجربته من المجتر او المكرور . هذه العبدية هي التي أرتدت بصاحبنا واخرجته طورا عن رومانتيكيته لتلفعه بكلاسيكية لاتتعدى المباشرة والتقريرية الخطابية .

اذن فنحن امام عنصرين رئيسيين يميزان مجموعة الشاعر رغم ألتصاقهما ، ورغم أمتداد كل منهما من الاخر واليه :

ماأستطاع في احدهما ان يهضمه ويتمثله ، ويطبعه بطابعه ، وما وقف في الثاني عند حد الاجترار والنقل الذي يهبط به الى النثرية .

يكاد العنصر الاول ان يستأثر بنصيب اكبر من المجموعة ، يشعرنا ان في لهات الشاعر مرارة لاتنطفيء ، لاتعتم تدفق باستمرار ، من هنا نعلم أن حرمانه قراري عميق .. لامس القاع ،بل تأصل فيه ،وكأي محروم اصيل يبدأ يشق حياته بين اكوام البؤس والحيرة والغربة :

في جحيم البؤس قضيت الصبا وبنار الهم صافحت شبابي (١)
وصدى الايام في سمعي هوى صاخب ، يغرقه موج رغابي
فحياة البؤس ان عادت بها خفقة الامال الام عذاب
ماتصبى القلب حان انما حيرتي قد اترعت كأس شرابي

وربما تعدى ذلك الى الشعور بعبثية الحياة . اذن فما جدوى ان يعيش الانسان ؟ ما جدوى ان يكتب الشاعر . أوليست الحياة جدرانا عبثية كما يقول كامو ؟ من هنا .. من هذه اللاجدوى تنفست زفرته الحارة في « أيها الشاعر » :

اليك اليك نجي السماء اذا ما دجا ليلك العاكر (٢)
اليك لقد رقد السامرون ونوم حتى الدجى الثائر
وهام السنا في بطون الظلام يؤج به كوكب زاهر ..
تكاد تحس اختلاج الصدور فتقلق اذ يزفر الزافر

تغالب دهرك والحادثات وعزمك لا ينثني قاهر

هكذا اذن ، في الليل ومن خلال الدجى المهيب تنبعث الصيحة الذبيحة .. صيحة نبي شاعر-كل أتعابه « مر الاذى » و « نار الهوى » وخير جزائه الاجحاد ونكران الجميل :

تريق الشباب ولا حامد ويعطي الهناء ولا شاكر

وهكذا يحقق الشاعر اضافة الى معاناته في نجواه هذه .. الحد الافقي الذي تقف عنده التجربة دون ان يكون الشاعر قد بترها . هذا الحد الافقي نراه يرتسم في كثير من قصائده حيث تنساب المعاناة وتتدفق حتى اذا ابتعدت عن منبعها تبدأ بالتقلص لتقف عند نهايتها الطبيعية ، تجد هذا في قصيدة « شرر » التي تنتهي بهذا البيت :

هذه الدنيا سراب زائف وسفيه من رجا دنيا السراب

كما تجده في قصيدة ثورة الالم التي تنتهي هكذا :

لقد ضحك اللوح من نفسه فكان توابيتكم وألهودا (٣)

ومن بين قصائد المجموعة تبرز لنا قصيدة « رأيتها في النادي » أستوحاها الشاعر من حياة الكلية المترعة بالندى والالوان والظلال . حيث يبدأها بعرض صورة لنادي الكلية الماخر بالجليد والنار . فهذه فتاة احتلت مقعدها يخاطبها الشاعر هكذا :

هذه الانظار جوعى اخذت ترنو اليك (٤)
وقلوب أحجبتها رمشة من ناظريك
ونفوس أضرمتها قبسة من شفتيك
ضاق زاهي الثوب حتى ان يغطي ركبتيك

هكذا ، وكما يرى الشاعر ، تحترق الشهوات الطافحة على النطع الاحمر ، وتتساقط العيون على مفرش هذه الحسناء ، واني لاشم رائحة الشبق ـ وانا اقرأ هذه القصيدة ـ تتطاير منها ، واستشعر جنسية عنيفة تتحفز خلف حروفها ، حتى اذا بلغت ذروة قاصية ينتبه الشاعر من انتشائه ليعود يعظ ويرشد :

خدعوك يا فتاة العصر حقا خدعوك
فيقول ألهوك ويفعل أرخصوك .... الخ

---

(١) قصيدة « شرر » . ص ١٣
(٢) «أيها الشاعر » ص ١٥
(٣) قصيده « ثورة الالم » ص ٢٨
(٤) قصيدة « رأيتها في النادي » ص٤٢

صدر حديثا :

عيناك قدري

قصص

بقلم غادة السمان

الثمن ٣ ل.ل منشورات دار الاداب

وهكذا يهدم الشاعر فنية القصيدة ويغلق رصانته الذاتية بنهج تعليمي أبعد ما يكون عن الادب الحي .

واذا فرغنا الى العنصر النقلي التقليدي فاننا سنجد الشاعر يتعثر بين ركامات منطفئة حيث تنتزع الكلمة من كل ايحاء ، ويتلوى الحرف يابسا لا يحمل اكثر من نفسه ، فهصرنا نقرأ حكما وبديهيات منقولة افرغها الشاعر في شكل جديد ، من مثل قوله :

انا في الدنيا غريب لم اجد لي خلا صادقا غير كتابي

يريد ان يقول « وخير جليس في الزمان كتاب » ومثل قوله :

فحياه الانسان تبدو هلالا ثم بدرا وتختفي في المحاق

ولعلنا ننصعق اكثر عندما نجد العلائق المنطقية بين الاشياء والتسلسل الزمني العلمي يطفو على السطح ، وعندئذ يحق لنا ان نتساءل ايمكن ان نسمي هذا ادبا ؟

اسمعه يقول في قصيدة « رثاء حي » (٥)

انا ارثيك طيوفا رفرفت ثم واراها سكون فضمور

انا ارثيك شبابا ذاويا لا نرى فيه سوى عين تدور

ان كلمتي : « سكون » و « ضمور » تشيران دلالة على توقف الحركة في الكائن الحي أي الموت الذي سيقود حتما الى العدم . اذ ان التتابع القسري المتأتي عن « الفاء » يقرر التسلسل الزمني العلمي الذي أشرت اليه آنفا . كما اننا نفهم من كلمة « تدور » اصطلاحا علميا يعني « الرمش » .

على ان الذي أؤاخذ عليه الشاعر هو اكثاره من ادخال حرف « الفاء » الذي يربط النتيجة بالسبب ربطا فجا وبمنطقية جافة ، ويشد الجملة بما يعدها شدا مرتخيا متهالكا . وأمثلة هذا كثيرة :

فحياة البؤس ان عادت بها خفقة الامال الام عذاب

و :

فلهيب الحب دنيا وتري ورؤى الايام أصداء ربابي

و :

فشب الصبح في قلبي لهيبا .....

و :

فجن تمردي شبحا رهيبا

و :

فهيهات الخطوب تهد عزمي

و :

فحشرجة الردى وظلام لحدي ...

ويظهر ان الشاعر شغف بالجواهري الى درجة انه نقل قصيدته « لعبة الايام » و « الى الشباب » عن قصيدتين للجواهري في نفس المعنى والبحر والقافية ، وان كان طبعا دون المقلد تماسكا وعمقا . كما نجد قصيدته « صرخة الحياة » منسوخة عن قصيدة المعري « عللاني » وان كان الخطاب عنده للفرقدين وقد كان عند المعري لصاحبيه .

هذا ماعن لي ان أسجله من خواطر نقدية أراها منسجمة تماما وما أؤمن به من قيم ادبية نابعة من موقف حياتي مؤطر . واذا كنت قد اطرحت كثيرا من قصائد المجموعة فلأنني أستقرأت الخصائص الشعرية من خلال ماتناولته بالاستشهاد . واذا كان لابد من كلمة تقال عن قصائده الوطنية فانها كما أرى قواقع بلا لؤلؤ ، تبدو وكأنها قيلت ارضاء لمناسبات جماهيرية هي دون الفنية والجمالية ان لم تكن هي بالذات مقبرة الادب .

واخيرا لايسعني الا ان أهنيء الزميل زهير وانا ارى أولى ثمراته تترجرج بين اصابع القاطفين شهية ناضجة ، آملا ان تكون ثمرته التالية أشهى وأنضج .

بغداد محمد راضي جعفر

(٥) ص ١٧

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت